

تشكيل بالأبيض: النار في غزة، النار فينا

(قصة)

□ هشام البستاني

...بعيداً إلى الجنوب الشرقي: «تملك الآن شقتك الفاخرة في مدينة النصر، على الخليج مباشرة» فتح الباب ودخل. الأصوات في شبه الجزيرة مختلفة، والسماء مشقوقة بخطوط بيضاء أيضاً لكن لم تتبعثر فيها العاصفير. العلم المرصع بالنجوم يلمع لوهلة تحت الجناح، وتظهر حروف نارية: USAF.

يقفر من الشباك ليسقط بين غابات النخيل وأهوار الماء وضاغف الرافدين. يتسلل الجنود مدججين بالأم - ١٦ والإصبع على الزناد. يمرؤون به وكأنه نسمة من هواء صياح ديك، ونقنقه دجاجات، ونهيق حمار، ثم تندلع النار من قاذفة اللهب لتتحول القرية شمسة صغيرة.

◆◆◆

حين استيقظ من كوابيسه كانت آثار الدماء والحروق وأغلفة الرصاص الفارغة تتناثر هنا وهناك في غرفته وعلى أغطية سريريه. ومن ثقب في السقف، كان يرى السماء الزرقاء المخططة بالأبيض والخالية من العاصفير. كان ثمة صاروخ لم ينفجر يخترق بطنه.

إلى يمينه جلس إسرائيل يهدده ويقول له: «نحن نتألم لكل قتيل مدني. نحن لا نستهدف النساء والأطفال. نحن نقتل الإرهابيين فقط. سنفتح تحقيقاً حول ما حصل هنا...»

ابتسم. نظر ثانية إلى السماء الزرقاء، فشاهدا تتحول قليلاً إلى الأحمر. مرّ سرب من العاصفير، وبالونات، وطائرات ورقية. تدتر جيداً بحزام ناسف، وضغط.

عمان

يزوره إسرائيل في منامه. يرتفع جداراً مُصمماً أمام عينيه نحو السماء.

◆◆◆

السماء زرقاء، تشقها خطوط بيضاء متصلة بمؤخرة الـ أف - ١٦. والعاصفير تبعثرها دقات هواء حارة تنبع من شفرات الأباتشي.

لحظات، ويُسمع الصوت وتهتز الأرض. لم يكن صوت الله يكلم موسى، ولا صوت ارتطام لوحة الوصايا العشر الحجرية بوجه الصحراء. «لا تقتل»، كانت تقول. لكن الصاروخ، المندفع بعزم يهوه وسرعة حجر داود، أنزل عمارة كاملة. بين الغبار والركام الأبيضين، كان رأس طفلة يحاول الخروج، بينما استلقى أجساد ثلاثة عشر من إخوتها في الأعماق معانقين ما تبقى من أمهاتهم.

سحابة بيضاء ثقيلة تُمسك الآن بوجه الأرض، تتسلل من تحت الأبواب، من أطراف الشبائيك، ومن الثقوب التي خلفها الرصاص في الجدران. الرائحة معدنية، تطرقها أصوات سعال واختناق. لا ترى أحداً؛ فضباب القنابل كثيف. بين الحين والآخر تسقط زحّة من شهب الفسفور الأبيض، وتندلع النار. يبدأ الناس بالركض، بينما يتساقط لحمهم المتفحم على الأرض.

يضحك الجنرالات على عرض الألعاب النارية.

◆◆◆

هشام البستاني

طبيب أسنان، وكاتب وقاص من الأردن. صدرت له مؤخرًا مجموعة: عن الحب والموت (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨).

يمشي في حي الزيتون. يتابع بنظره الهياكل العظمية الراكضة. يُفرض عن رأسه غمامة القهر، ويتابع المسير. يسير بعيداً، بعيداً...